الأب

لكاتب ألماني ولهلم شمبنبون
بقلم الدكتور علي حسين

حقيقة قد أصبح لنا فى مدى الاثنتى عشرة سنة من زواجنا كلبان ولكننا لم نرزق طفلا واحداً

ولقد بدء الكبر على الكلب الثانى من كثرة التجوال طوال هذى السنين فاستأجرنا منزلاً كى نكفل له فيه الراحة

لذلك وجب علينا أيضاً البقاء معه فى النزل ولو أن أقدامنا لا تشكو تعباً بل على العكس تنحفز كلفاً بالرحيل وحباً فى الحركة . إذن وجب علينا الخضوع لصيف مملوء بالأمطار وشتاء يكتنف فيه الضباب بيتنا كان فى وسعنا — لولا هذا البيت — الرحيل إلى الجنوب

هنا تولد فى نفوسنا شغف جديد نحو حياة أغزر وأوفر من الحياة التى نحياها . نتوق إلى حياة تنشاف إلى حياتنا ، فتضمنا إلى أسرتنا قطعاً فى الأسبوع الثالث من حياته لم تقو عيناه على شدة الضوء

وأضفنا إلينا ما طاب من دجاج وخراف أو ماعز

ولكن البيت ينقصه شيء : ينقصه طفل

والواقع أننى فى البداية ما شغفت شغفى هذا إلا رغبة فى الحصول على شبه ألدوبة ألهو بها

على أن الرغبة كانت فى نفس امرأتى أقوى وأمر ، ولكنها كانت تتهرب من رغبتها فى صمت وبحال تكاد لا تدرك . غير أنى لم أستسلم لتحايلها وتهربها ولربما لم يكن لى إلا الغريزة التى تدفع الرجل ليصير أباً

وفى النهاية اشتدت الرغبة فى المرأة أيضاً وأصبحت تلح فى الحصول على طفل ، ولما لم تهبنا الطبيعة ابناً وجب علينا بدورنا أن نخدعها كما خدعتنا فأخذنا نبحث عن طفل غريب

ولكن ما العمل فى ظرف مثل هذا ؟

عمدنا إلى مستشفى قريتنا حيث تلد الشابات أبناء لا يلبثون أن يصبحوا عبئاً عليهن . كلا لا توجد هنالك أم لا تحرص على ابنها كل الحرص رغم كل شدة وضيق

بقى احتمال آخر : وهو أن نرضى بطفل من هؤلاء قصد تربيته فقط وفى هذا من المخاوف والمخاطر أن يسترده أهله بعد زمن ؛ وكيف يكون حالى وقد شغفت به حباً ؟

انتهى تفكيرى فى الطفل كألعوبة وأداة للتلهى وأصبحت أفكر فى طفل يدوم لنا نسعد بنموه ولا يجسر أحد أن ينتزعه منا ، يبقى بيننا ويقضى الحياة معنا ويحبنا حب الأبناء للآباء الحقيقيين

حقيقة أمرنا أن شغفاً قوياً ملك علينا مشاعرنا، نريد أن يغمرنا حب طفل ، حب إنسان لا تتغير ولا تتبدل مشاعره نحونا شأن الأصدقاء الذين صافيناهم وفقدناهم نريد حياته وحظوظه متصلة بنا لتكوّن وحدة سامية وسط هذه الحياة المملوءة بالبغض الجمة الصعاب والمتاعب

أيقال: عديم الأبناء عديم الهموم؟ إننا نريد هذه الهموم ! لقد أصبحنا لا نحتمل المناصفة فى الحياة إننا نبغى الحياة كاملة بهمومها وآلامها وأيضاً بسعادتها

تصفحنا الجرائد فوجدنا بين الإعلانات عدداً ليس باليسير من الأطفال قد عرضوا كسلعة تباع وأعلنوا عنهم بين العقار والأثاث والآلات المستعملة. وإن نعجب فعجب لمن يتناولون أموراً لا تكون فى متناول أى إنسان : أعنى حظوظ البشر

ولما كثر علينا العرض أصبح لنا أن ننتخب ونتدقق فى الانتخاب

حقاً لقد صرنا نتخير ونتدقق بينا غيرنا من الآباء يقبلون ما وهبوا من بنين؛ وهم بما وهبوا سعداء حتى ليتملق الآباء الحقيقيون بأبنائهم المرضى أو المعجزة أو العمى بحنان وعطف خارقين

أما نحن معشر الآباء المتبنين لا نعرف لرغائبنا حد الاعتدال. إنا لا نبغى سوى طفل كامل الصحة قوى البنية تام التكوين فتنة فى جماله . فنحن نتطلب من دنيا النقائص كمالاً ليس فى عالمنا

ولما أعيانا البحث والتنقيب طوال ستة شهور أقبلت المقادير فى عوننا

لامرأة أخت التحقت بحاشية فتاة ثرية مسنة يجب أن تصحبها فى رحلة . ولقد مات زوج هذه الفتاة قبل ولادة طفلتها . والآن تريد أن توكل أمر هذه الابنة إلى من تطمئن إليهم فسألتنا إن كنا نقبل رعايتها لمدة ثلاثة شهور أو لنصف عام . ولم يمض خمس دقائق حتى كان الرد فى صندوق البريد بالموافقة

موافقة ليس فيها تحفظ ، وقد غلبنا طيش المفاجأة فلم نفكر فى صعوبة انتزاع الطفلة من بيننا بعد ربع أو نصف عام . لقد قبلناه اقتراحاً منقذاً لنا مما نحن فيه من اضطراب عاينا كتلبية لصوت القدر، وعلى كل حال إن هى إلا تجربة نتعرف بها حال طفل غريب بيننا ، وكيف نوفق بيننا وبين هذه الطفلة فى هذه العلاقة الجديدة

جاءت الأم بالطفلة ، وتكاد تكون الأم أيضاً طفلة ، شقراء وضاءة الوجه باسمة كالملاك . وكانت طول يوم الفراق دائمة الابتسام فتفتر عن ثنايا جميلة يبدو معها جانب من اللثة . بقيت معنا هذا اليوم تقود لنا طفلتها فى كل تصرفاتها وعاداتها ، وتتحدث إليها وتثنى لها ، ثم تنظر إلينا كى ترمق فينا عين الرضاء .

رضى ! وأى رضى ! لقد كنا نرتعد من فرط النشوة . وبقينا نرقب اللحظة التى تفارقنا فيها الأم وتبقى لنا الطفلة وحدها ، وكنا نأخذ التعاليم الدقيقة فى تمعن وتفهم شئون التغذية وطريقة حمل الطفلة والعناية بها .

أتعجب ! لقد ظهر أن زوجتى مدركة كل أمور الطفلة كالأم تماماً ؛ إننى لم أرزق طفلة فحسب

بل وهبت امرأة فى حال جديدة ، والأمر الوحيد الذى لم يكن فى استطاعة زوجتى القيام به هو تغذية الطفلة من ثديها ، وبذلك وجب على أن أتنازل عن هذه الصورة الخلابة من الحياة

ترقد الطفلة فى الحديقة فى عربتها الزرقاء الخشبية التى اشتريناها بمجرد حضورها ، وهى الآن نائمة قد حولت وجهها إلى الجانب . وقبلا كانت لا تحركنى قوة لمشاهدة رضيع ولو هنيهة قصيرة . والآن وهبت العين التى ترى المعجزة التى يحملها هذا الوجه الذى لا زال يحوى ضوءاً من أضواء العالم الذى أتى منه ، وإنى لأشعر بإشفاق يتملكنى إزاء هذه المخلوقة العاجزة التى لا يدرى سوى الله أى المتاعب تنتظرها ، كذلك تملكنى الشعور القوى بأن أتعهدها بحمايتى وأذود عنها .

صه ! هناك ساعة الكنيسة تدق السابعة .

همت الأم لتهيأ للرحيل فى صمت وجمود وفى شىء من السرعة ، لأن الطريق إلى المحطة طويل . وعادت إلى الحديقة والقبعة على رأسها وقد لبست معطفها الصوفى وأقبلت تودع ابنتها

يكاد وجه الصغيرة يهبط بين ثنيات الوسادة

وبقيت زاوية صغيرة من وجهها لتطبع الأم عليها قبلتها . ولم تحاول أن توقظ الطفلة كى يكون الفراق هينا . ولم تبلل عينيها دمعة واحدة ؛ وكل ما حدث أن جانباً من فمها حوته قشعريرة فيها شىء من المرارة

ثم قالت وهى تبتسم ابتسامة واهنة « بعد ربيع عام ! »

ولقد حمدنا الله كثيراً أن انتهى الفراق بهذه الوداعة .

ولكنها ما وصلت إلى باب الحديقة حتى لاحظت وأنا أرافقها خلف النافذة بناظرى أن خطاها بدأت تتعثر فكأنها أخذت تستيقظ من حلم . وبدأت تشعر بيدها الخالية وكانت تحمل طفلتها قبل هنيهة ، ثم حولت وجهها نحو الطفلة مرة أخرى ولكنها لم ترها فقد اختفت خلف جانب من البيت وتابعها ناظرى وهى تسير فى صحبة زوجتى بخطى خائرة كالذين يمشون فى نومهم وهى تبتعد بكل خطوة تخطوها عن طفلتها وشاهدت أكتافها تهتز هزات عنيفة نتيجة بكاء مكتوم

لا أعجب فى الوجود من محكوم عليه بالإعدام يحرك قدميه ويسعى إلى مكان حتفه بنفسه

هنا معنى شعور من الحياء عظيم . هنا بداية لإثم كبير

لقد تظاهرنا جميعاً كأن كل ما فى الأمر مرور ربيع عام ولكنا نعلم فى خفايا أنفسنا أنه وداع أبدى وفى هذه اللحظة فتحت فمى لأصرخ خلف الأم لأقول لها : « قفى لا شأن لى بطفلتك »

فى هذه اللحظة انطلقت صرخة صادرة من الأم ليست من أصوات البشر بل صرخة حيوان

لقد استحال إشفاق إلى حنق فما سمعت إلا اتهاماً لى ، إنى لأتوارى خجلاً أمام جيرانى ، ألم يكن هذا هو القدر الصارخ الذى اغتال أباها

والآن يحتل مكان الوالد آخر . أنا ذا الذى يحتل مكان الوالد وبذا أكون قد أديت عملاً جليلاً

— ٢ —

ربما كنت الوالد الوحيد الذى يستطيع أن يقول عن طفلته ما أجملها وإنها أجمل مخلوقة فى العالم ، أستطيع أن أقول ذلك ولا أكون موضع سخرية لأننى حين أبهر لرأى هذه العيون المنحرفة قليلاً ، وأفتن بثغرها المحكم وبهذه الأيدى الدقيقة الصغيرة ، إن فعلت ذلك لا أسخر من نفسي فليس لى شخصياً فضل فى ذلك

لا يوجد فى دم الطفلة ذرة واحدة تنفرها منا ولا بد أنها شاعرة بطيب العيش بيننا كما لو كانت مع أمها . بل هى الآن أسعد حالاً إذ بدلت قتام المدينة بدنيا ملؤها الشمس ، واستعاضت أرضاً مغطاة بالأسفلت بأخرى تكسوها الحشائش . ولقد أخذت الطفلة تنمو وتترعرع وتتفتح بعد أيام قلائل . وكثيراً ما تركناها عارية فوق الأعشاب وبذا اكتسبت بشرتها سمرة جميلة

وكثيراً ما توافد علينا الجيران — وقد اكتسبنا تفهم — ويقولون وهم يهبطون برؤوسهم إلى الطفلة : « لقد صادفت الطفلة هنا مقاماً رحباً »

وحين تكون فى الفضاء تجلس وتتسلق فى الهواء بكلتا ذراعيها ، وتتحدث ولو أنها لا تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة ، إن هى إلا أصوات ومقاطع تطول وتقصر ، وحيناً ترتفع وحيناً تهبط ، وكأنها تسامر وتتحدث إلى جمع لا يرى من المستمعين وكثيراً ما يقاطع الحديث ضحك فكه عجيب ، أما ذراعاها فكانتا تارة تمتدان نحو السماء وتأتيان بحركات فيها ازدراء واحتجاج غير مسموع ، وطوراً تجمع هاتان الذراعان الدنيا كلها بينهما

وكثيراً ما وقفت فى جانب من البيت لأشهد هذه الرواية التى تخلبنى بغموضها

وبعد زمن هيأنا للطفلة حظيرة : سياجاً من الخشب مربع الشكل فيه تتحرك جالسة وهى تستخدم كلتا ذراعيها كأداة تتزحزح بهما وكأنها عائمة تسبح بهما من مكان لآخر

ولقد عجبنا كل العجب حين وجدناها فى يوم من الأيام فوق الأعشاب خارج الحظيرة . فقد نهضت وعمدت إلى المغلق وأزاحته فانفرج وهذه أول ظاهرة لليقظة الذكاء ! والجميل الطريف أنها استخدمت للخلاص والحرية

لقد أصبح فى غير المستطاع حصر قوة الحركة فى الطفلة فى هذا المكان الخشبى الضيق فقد طفت على معقلها وطفقت تجوب الأنحاء طوراً هنا وطوراً هناك ، تتحرك وفى صحبتها كلب وقط إلى أن تصل إلى سور الحديقة ، ولا تتعداه كقوة لا تغلب ولكن إلى متى ؟ ومتى تقتحم هذا الحصن أيضاً ؟

إن بين الأطفال والحيوانات لعلاقة غريبة ... تعذبها وتضع أصبعها فى أعينها وتجذبها من آذانها وأذنابها ، وكثيراً ما تصيح هذه الحيوانات من من فرط الألم وتفر ، ولكنها لا تؤذى الطفلة ولا تلبث بعد قليل أن تعود إليها . ولم يكن تعذيب الطفلة للحيوان عبثاً إذ لا بد أنه عن قصد يمت إلى غريزة لا تدرك فى الخلق من بداية نشأتهم ؟ ولا بد أن الحيوان يشعر نحو هذه المخلوقة بشىء من البهيمية هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تحس وتخضع للغلبة البشرية فيها

كنا إذا تحدثنا إلى الطفلة — ولو أنها لا تفهم ما نقول — نعتنا أنفسنا : أمّا وأبا . وهكذا

كنت أنت نفسي فأقول للطفلة: «أتريدين الذهاب إلى مكتب البريد مع أبيك؟!»

وما تحركت قدماي إلى مكتب البريد إلا والطفلة معي. لأننا نسير في طرق ملأى بالحوانيت وأمام الحوانيت تقف الناس، فأحمل الطفلة فوق ذراعي وأسير بها خلال الزارع، ثم أعرج إلى الشارع الرئيسي بخطى سريعة، وأشعر وكأن كتفي زودتا بجناحين والكل يفوه بكلمة الإعجاب، وتمر النساء بأيديهن فوق شعر الطفلة الحريري الأشقر الناصع إلى حد البياض، وحيناً تقف بعض الفتيات المتجولات ويتعمن النظر في الطفلة وفيّ، وبديهي أن يحسبني الوالد الحقيقي وهذا ما يجعلني أزهى وأباهي. وحدث أن وقفت إحداهن وتناولت يد الطفلة وتحدثت عن وجه الشبه بين الطفلة وبيني!

بدأت أنسى شيئاً فشيئاً أن هذه الطفلة ليست طفلتي وأخذت أشعر بغضاضة وإيلام حين يذكر الناس أن الطفلة وجدت بيننا مكاناً رحباً». إنني لا أريد أن يذكرني أحد أن للطفلة مقاماً أو موطناً في أي ناحية أخرى. وحيناً كنت أتفرس في المرآة لأرى وجه شبه بين الطفلة وبيني. فكثيراً ما يصبح بمرور الوقت بين الزوجين شبه، وبين الصديق والصديق شبه، حتى الكلاب تحمل من ملامح سيدها شيئاً ...

وكثيراً ما كنت أرحل بدراجتي ومعي الطفلة إلى البلدان القريبة حيث لا يعرفني أحد؛ وهناك أستمتع بزهو الوالد دون أن يعكر على أحد نشوتي. وأصبحت أتحاشى المرور من الشارع الرئيسي حتى لا يذكرني مذكر بمركز أبوتي. ولقد أطرت امرأتي مرة طبع الطفلة المرح وخلقها الهادئ وأنها لا تبكي قط، فأجبتها على الفور في غير وعي: «لقد أخذت هذا الطبع عني!»

لقد زال من فكري كل ما يذكرني بالوالد الحقيقي للطفلة. ولما استحضرنا لها قدحاً لتشرب منه اللبن نقشنا عليه الحرف الأول من اسمها إلى جانب الحرف الأول من اسمي، وحين قيدنا اسمنا في قائمة الضرائب ووجب ذكرها قيدتها بلا تفكير إلى جانب اسمي

أنا لا خطاب من أم الطفلة ترجونا بل تتوسل إلينا أن نستبقيها عندنا. ولقد أهملت الرد على هذا الخطاب لأن بقاء الطفلة عندي مسلم به لا شك فيه. أنا لن أفرط في هذه الطفلة إلى الأبد

إن هذه الطفلة تخصني بقوة إيماني ويقيني

— ٣ —

بعد حين حدث أمر أفزعنا

خرجنا مرة نتمشى، وفي أوبتنا سمعنا بكاء الطفلة عن بعد فسعينا إليها سعياً فوجدنا الخادمة تضربها بغصن شجرة وتقول لها: «أيتها القبيحة» ولم تبد الخادمة أي اهتمام، وادعت أن الطفلة كانت تبكي ولا تريد أن تقف ببكائها عند حد وإنما فعلت ما فعلت لإسكاتها. ولما أنبناها قالت: «ماذا؟ ليست الطفلة طفلتكم وليس للطفلة أب»

أي خشن نطقت به الفتاة! أتحتقر طفلتنا ولا تعترف بأبوتي؟ من هذا الحين أصبحنا نخشى ترك الطفلة في البيت فوضعت نواً مقعداً أمام دراجتي وبذا أصبح في الإمكان أن تقطع معي المسافات الطويلة بين الأحراج والوديان لتبسم للعالم وتغني له

ولقد بدأت الشكوك تتولد في نفسي نحو أهل القرية في أنهم إنما يضمرون لي السوء، وجعلت أجد

فى كل كلمة قيلت غرضاً مقصوداً ، وبقيت فى هياج شأن كل حياة تحوى كذباً

ليس هناك ثمة دليل على أن الناس لا يعتبرون الطفلة الاعتبار كله . على أنه ليس هناك أيضاً أدنى شك فى أنهم أرادوا إيلامى . فقد كشف لهم عن موطن الضعف عندى ، وهذا أمر كائن فى طبيعة البشر؛ وبادى بدء يأتون ما يفعلون حباً فى الردع ، ثم حباً فى المداعبة ؛ وفى النهاية حباً فى الإيذاء للإيذاء فهم يعذبوننى تعذيب الطفلة للكلب والقط يسألون الطفلة عن أمها وهى لا تدرى مايقولون ولكن إلى متى تبقى لا تدرى

لا بد من الخلاص من هذه القرية حيث يعرفنا كل إنسان إلى مكان نكون فيه غرباء يتحول كذبى فيه حقيقة

— ٤ —

تدعونا رقة الطفلة إلى الرحيل للبحار وأقربها منا البحار الجنوبية ، إذن هيا إلى البحار . هنالك عشش صغيرة من الخشب يجلس الناس حولها طول النهار فوق الرمال ويغطى التليان أطفالهم بالرمال فلا يبدو منهم سوى الرأس وهذا ما فعلناه مع طفلتنا كى يقوى جسمها بهذه الوسيلة

ولقد وجدناها مرة تلهو بالرمال بمجرف وإناء فأغمضنا أعيننا من ضوء الشمس ؛ وبعد ربع ساعة اختفت فهممنا فى خوف نبحث عنها فألفيناها فى جمع من السيدات والسادة التليان قد سعدوا بها وبشعرها الأشقر .

وكلما سئلت الطفلة عن اسمها أجابت « لو » وبذلك احتفظت بهذا الاسم الذى أعطته لنفسها

وكانت « لو » ملاك الشاطئ الرقيق الصغير وأنا الوالد الذى يتقبل الاطراء والتهانى فى مداعبة وبساطة أجدت التظاهر بهما . فى الليل أضطجع بقلب خافق من فرط الطرب بسعادتى

ولم يكن الشعر الأشقر وحده الذى اجتذب قلوب الناس فى « لو » فقد كانت على الشاطئ ممثلة أسوجية بطفلتها التى صادقت « لو » وقد حدث لطفلتنا أكثر مما أسمح به فما انحنت رؤوس السيدات إلا « للو » ولا قبلن غير « لو » ولا حملن فوق أذرعهن سوى « لو » ولا كانت الهدايا إلا « للو »

ولقد كان بين النزلاء زوجان لم يرزقا ولدا مثلنا انهالا على « لو » بالحلوى والحلى واللعب إلى حد اضطرنا إلى منعهما فى شىء من الشدة ، كذلك وجب علينا أن نقى طفلتنا من الاطراء والألفاظ الحلوة المفسدة للصغار فقزنا بغضب الناس الذين بدأوا يحنقون علينا حنقاً مصدره الحسد

هنا شعرت بانتصار وزهو يتزايدان ولو علم الناس الحقيقة !

فى هذا الحين بدت سحابة قاتمة فى سماء حياتى الجديدة إذ كلما كانت « لو » فى جمع من الناس الغرباء وأردت أخذها من بينهم بكت

وقد كانت إلى هذه الآونة طفلة بغير عبرات ؛ وكانت إذا سقطت على الأرض ضحكت ولا تعرف للضحك نهاية

والآن تبكى بكاء عجيباً فى هدوئه ، عجيباً فى طوله وأعجب من هذا أنها تقوس أصابعها الصغيرة وتعمل بأظفارها رغبة فى إيلامى

لقد أذهلنى بكاؤها الذى لا أفهم كنهه كما أذهلنى هذه الرغبة الجديدة فى إيلامى

— ٥ —

جاءت الحرب

وقف الناس على الشاطئ في لباس الحمام والصحف اليومية في أيديهم

إذن وجبت علينا العودة

وكنا نسمع سنابك الخيل تصطك بالأرض وكانت هذه أول ظاهرة مروعة للتعبئة

ولقد وقف بنا القطار في كنستانس ومن ثم وجب علينا الانتقال إلى ألمانيا سعياً على الأقدام

وكانت النساء السويسريات وأطفالهن معهن يشهدن بعيون باكية الرجال الألمان الساعين إلى الموت.

وكنت أحمل طفلتي فوق ذراع وجعبتي بالذراع الأخرى ولذلك اختصني إشفاق معظم الناس، وهنا كنت أستمرئ لذة الأبوة في معنى ما كنت أتوقعه

ولقد استقبلتني زوجتي وابنتي على المحطة لدى أول عطلة لي في الجيش. ترى هل نسيتني «لو» ؟

كلا. وإن أنس لا أنس التعبير الرتسم على محياها وهي تطل عليّ لأول وهلة، هذي المخاوقة الرقيقة الفخورة أن لها أباً كما كنت فخوراً لعكس السبب.

ولكن ما هذا البحث والفحص اللذان تقوم بهما عيناها ؟ هل بدأت صورتي تضعف في مخيلتها مدة غيبتي ؟ وبدأت صورة والدها الحقيقي تمثل أمامها ومصدر هذا إلهام غامض أثاره حنين الدم ! ترى هل شعرت بخيبة بعد طول الانتظار ؟ وهل من أجل ذلك كان جمودها وسكوتها في البيت

صاحت طفلتي رغم تلطفي لها؛ غير أنها كانت تتبرم مني وتجمد أمامي وتعرض عني وتعمد إلى عرائسها حيث خلقت لنفسها بينها عالماً غير عالمي

وفي المساء تبكي بكاء عجيباً طويلاً لا يؤثر فيه المعاف إلا أن يزيد في اشتداده

إن بكاءها موجه إلى المجهول، إلى الأب الذي تشعر به شعوراً غامضاً.

هل هو يناجيها من عالم بعيد عن تصورنا ؟ وهل ينبطئ على امتلاكي للطفلة ؟ أجل إني لأشعر بعدائه لي وقد بدأت الغيرة تجد مني غذاء شهياً ... وهذه لا تلبث أن تتحول إلى بغض طائش.

ولقد عمدت إلى صورته فأقصيتها حتى لا ينسى الطفلة الوصول إليها حتى بعد سنوات. سوف يأتي الوقت الذي نقص عليها فيه قصته ونذكر لها أنها ليست من دمنا وأنها لم تكن سوى ربيبة. ولكن لا عجلة في ذلك.

— ٦ —

وضعت الحرب أوزارها وسقط المارك ووصلت أسعار الحاجات إلى الأرقام الخيالية وعاش المضارب والفلاح في ثراء ورغد، وعانت الطبقة المتوسطة ما عانت، فكانت «لو» الضوء والأمل والسعادة التي تنسينا هم العيش، وقد وصلت إلى السن التي يجب أن تذهب فيها إلى المدرسة.

قالت زوجتي: الآن حان الوقت الذي نرفع لها فيه النقاب عن أكذوبتها.

قلت: إذن نكون قد أوجدنا سبباً لسخرية الأطفال من «لو» وكيف تتحمل الصدمة ؟

إن الذي يقودها إلى المدرسة ليس والدها الحقيقي ككل الأطفال الآخرين. غير أني كنت أخشى في نفس الوقت أن أفقد حبها بهذا التصريح.

صارت تسعى كالطير في خفة ورشاقة إلى المدرسة

رغم جسمها الضخمة التي تثقل عاتقها .

وكنا نجلس مساء في شرفة المنزل الخشبية نعزف بالقيثار ونغني وأخذت صوتي حتى يبقى صوت « لو » عالياً جلياً فتغني في عذوبة كتغريد البلابل . ترى ماذا عانت هذه الروح الوديعة حتى يصدر غناؤها مرتعد الرنين !

بدأت أشعر كأن نفسي في قرارتها تغني مأخوذة بقوة فاتنة خفية وكأن قدمي بدأتا تسبحان خفة وطرباً . لقد جعلت الطفلة مني رجلاً طيباً

أواه ، لقد عاودني الوساوس بفقدانها . وأصبح الكذب لا يجدي فتيلاً

لقد وجدت لو زملاء للعب وإنه ليسرني أن أراها وسط الأطفال ترقص وتمرح بينهم

والعجيب إذا حان الرحيل وانصرف الأطفال عنها كانت لا تطيق البعد عنهم ولقد روعني عنادها وتعلقها بالأطفال حين انصرافهم عنها

ولقد نفر الطفلة مني تطرق في حبها الذي وقعت فيه كي أرضيها فقد أحست لأول مرة ما يخفي هذا الحب من اضطراب وأصبحت تقابل عطفي وإشفاق لأول مرة بشيء من التمنع والجفاء . ولقد باغت الطفلة مرة وهي تفحصني بناظرها خلسة فحصاً وإنها لنظرة لا يمكن لمخلوقة أن تلقيها على والدها الحقيقي وخاصة في هذه السن في عامها الثامن

والمصيبة أن والدة إحدى صويحبات « لو » أحست أن هنالك سراً خلف علاقتي « بلو » ولقد لمحت هذه المرأة وهي تفحصني بناظرها فحصاً ، وهذه هي نفس النظرة التي اكتشفتها في «لو» والآن أعلم مصدر هذه النظرة ، وإذ يلتقي ناظري بنظر هذه المرأة في هذه الآونة تجمد كأن فكرة معذبة تعانيها

والكارثة الكبرى أن الطفلة أخذت عن المرأة الجمود الذي جعلها جامدة إزاء كل كلمة أوجهها إليها ، وهذا ما أقام بين عالمها وعالمي سياجاً . وحينما ألحظ في وجهها عداوة ومرارة ظاهرتين يتبعهما بكاء هادئ طويل لا ينتهي إلى منتصف الليل إلا حين تجلس امرأتي إلى حافة سريرها وتضم الرأس الأشقر إلى صدرها في سكون

وبعد عام اتخذت « لو » لنفسها صديقاً وهو طفل في الحادية عشرة من عمره عليه سيماء أهل الجنوب وجدت فيه المثل الأعلى لتخيلاتها ، وقد وفد إلى قريتنا لقضاء عطلة الصيف بها ولا يوجد في الوجود سواه من أخذ من نفسها هذه المكانة من الاحترام والتبجيل ، كما لا يوجد مخلوق تثق بكل كلمة منه غيره ، وهو الوحيد الذي له سلطان عليها . وهنا أيضاً وجدتها تلقي الطرف باحثة في الوجه الجديد ... هي تبحث عن الوجه الغامض في مخيلتها لتتبين وجه الوالد الحقيقي . والعجيب أن وجه هذا الطفل الأسمر الواسع العينين بسيماء أهل الجنوب ، يطابق وجه والدها الميت تماماً ـ مع أن الطفلة لا تعرف عن والدها شيئاً ـ ولقد أصبحت في صحبة هذا الطفل هادئة يتلألأ وجهها في سعادة نفسية دخيلة

وكأني بها امرأة صغيرة قد ملأ الحب نواحي نفسها فبدت برشاقة لا حد لها ، وكنت أشعر بسعادة لمرأى هذين الطفلين جالسين متعانقين على مقعد طويل يتحدثان بصوت خافت ؛ ولم يداخلني — وايم الله — غيرة ولا حاولت أن أسمع ما يدور بينهما من حديث ، وشعرت كأن جانباً من جريرتي

نحو هذه الطفلة قد حل عنى وقد كان هماً يملأ صدرى فخف عنى

ولما فارقنا الطفل استطحبته « لو » إلى المحطة دون أن يبدو منها ما يشعر أنها تفقد من سعادتها شيئاً .

ولكنها بعد حين وقد أصبحت وحيدة بيننا وقد بعد القطار فى ناحية قاصية وبدت لها القرية كأنها خاوية ، هنا مالت الطفلة برأسها على المائدة وصرخت صرخة عالية وهذه نفس الصرخة التى تمت إلى الحيوان التى نفشها أمها عند وداعها لها

ثم نطقت بألفاظ كأنها فى قوتها من أساطير الأولين ، ألفاظ ما كان يدور بخلد إنسان أن هذه الطفلة تفوه بها ، قالت صارخة : « لماذا وجب عليه الرحيل ؟ لماذا لا يبقى هنا ؟ الأشجار باقية ، وكل الناس باقون . لماذا وجب رحيله هو ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ! » .

كاد قلبى يتفطر شعوراً بجريرتى وإثمى فأنا الوحيد الذى يعرف أن هذه الشكوى صادرة إلى الوالد المجهول

ثم الاتفاق أن أعلم « لو » حقيقة أمرها فى عيد ميلادها العاشر واحتفظت لنفسى بأمر تعريفها بوالدها الحقيقى وأنزل نفسى إلى مرتبة الربى فقط غير أن الوقت قد فات ولم أجد الشجاعة على ذلك .

وكنت أقول تبريراً لموقفى إنى أخشى عليها من وقع الخبر .

ولم يقف جنونى عند هذا الحد بل لقد طردت المرأة ذات النظرة الغريبة عند ما قالت مرة :

« ليس بينك وبين لو شبه » إذ شعرت أنها قد جرحتنى جرحاً قاتلاً فطردتها من بيتى .

— ٧ —

لقد انتابتنى حمى فى الأعصاب لا أفهم لها سبباً وبعد ساعة من الإصابة كنت فى عربة المستشفى و « لو » فى صحبتى تنظر من نافذة العربة ولا تفهم للرحلة خطورة فلم تكن لها سوى نزهة سريعة . ووجب على زوجتى أن تبقى معى ، وتركنا لو مع الخادمة فى البيت .

فى هذا الوقت كانت لو فى الخامسة عشرة من عمرها وقد وجدت مدة غيبتنا شاباً تعلقت به وجعلت له من منزلنا موطناً رحباً يدخل ويخرج ويأكل ويشرب كأنه فى بيته تماماً . وكنت أقول لها « كل ما نملك لك » فكانت تهب هذا الفتى — وكأنها فى حلم — كل ما يصل إلى يديها مأخوذة بنزعة حب الإعطاء . أما الشاب فكان من العاطلين الذين لا يصلحون لشىء

ولما خرجت من المستشفى وعدت إلى البيت كان الفتى فى انتظارنا لدى الباب كأنه منا

يا للغرابة ، يا له من أمر لا يدرك كنهه ، هو إنسان جديد أسود الشعر أسمر اللون بسيماء أهل الجنوب .

ألا يشابه والد « لو » كل الشبه ؟ أليست له نظرته تماماً ؟

لم يكن من سبيل إلى إقصاء هذا المتطفل من بيتى سوى استعمال القوة ...

فصرخت له صرخات كأنها جنت جنوناً .

وانتابتها هى أيضاً حمى فى الأعصاب

فكان هذا المرض الواحد هو الشيء الوحيد الذي بقي بيننا رباطا يصلنا

وأصبحت تصد كل كلمة تقال في سبيل تهدئتها أو التفاهم معها في شدة وعنف وعنت

وكنت أقول دائما : « الفقراء أحسن الناس » وها قد صادفت فقيرا آثما بالله لا يروقني الآن ؟

وإني لأحبها من أجل بسالتها التي تذود بها عن حبيبها ، وإنه لعسير علي أن أفرق بين حبيبين غير أننا هنا إزاء فتى عاطل يزهو بكبرياء ويناصبني العداء ويطرقني بوابل من الرسائل كلها تحد وغطرسة وهذه الفتاة تميل إليه

إن « لو » لا تخصك أنت أيها الفتى الذي ترتمي تحت قدميه بعاطفة قوية هوجاء أعلم أنا وحدي ماذا تريد

هي تبحث عن والدها . هي تبحث بجد عمن تخصه ...

ليس في وسعي أن أهبها من مات غير أننا نستطيع أن نعمل ما في مقدورنا عمله حتى نكفر عن فريتنا الكبرى مصدر كل بلاء ، في استطاعتنا أن نردها لأمها الحقيقية

أما مجرد الإفصاح عن الحقيقة فأصبح وحده لا يجدي . إذن لها أن تقول : مالك تحمني عمن أحب ولست بوالدي ؟

يجب أن أردها إلى أمها وعلى الأم أن تجد القوة لإنقاذ ابنتها من المخاطر التي تقع فيها باندفاع من جراء جريرتي

— ٨ —

سافرنا بها إلى براغ حيث تقطن الأم وقلنا لها إنها سفرة لمدة ثمانية أيام فأطاعت لو وأصبحت لا تسمع لنا كلمة

وفي أثناء الطريق ونحن في القطار سردنا لها الحقيقة مجردة فقبلتها دون انفعال نفسي رغم رقة إحساسها ، وذلك ما كنت أخشاه ، فالحقيقة أخف وطأة على النفس دائما مما يعتقد الإنسان والكذب وحده هو الأثقل من الصخور عليها

وكانت أمها في انتظارها على المحطة فكان مشهد أختين تتعانقان

ولم تتحول « لو » فترفضنا بغتة وتتعلق بالأم وحدها

فقد كان للكذب الطويل الأمد قوة هائلة فبكت حين رحيلنا وبقيت لدى الأم كأنها في حلم فقد كان التباين عظيما لا يتحمله هذا الرأس الصغير في وضوح ورؤية

بقيت لدى أمها عامين كاملين بدل الأسابيع القلائل التي أرادت تمضيتها مع الأم ، وعوفيت « لو » من البكاء الطويل المتواصل ولي الآن أن أتنفس الصعداء إذ تحررت من إثمي .

لم يضعف حبي بل زاد وبالغ في الزيادة والسبب في أنه لم يقف عند حد أن القدر لا يجيزه لي ، وهذا الحب سوف يقضي على راحة الطفلة كما تلتهم الحرارة النبات الذي يحتاج إلى طقس ندي .

أما هذا التطرف المضني في هذا الحب فمصدره الكذب .

وطفلي الحقيقي الذي لا تجيزه لي الحياة — أين هو في هذا الكون ؟ ليس في وسعه أن يصل إلي ينادي كما أناديه دون جدوى .

وهذا مصدر الآلام ! على مسيو